

مفاهيم القرآن

(257) (لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) .(1) ولا ريب أننا لو تجربنا عن آرائنا الشخصية حول الآيات القرآنية ، لوجب علينا أن نقول: إنَّ هذه الجبال لابدَّ أنَّها تنطوي على قابلية الخشوع والتصدُّع لكي يصح أن يتوجه إليها الخطاب الإلهي القرآني . إذ ليس من المعقول أن ينسب القرآن الكريم - وليس من شأنه المبالغة الكاذبة - هذا النوع من الحالة (أي حالة الخشوع) إلى ما لا يكون قابلاً لها . وربَّما يحتمل أنَّ الآية كناية عن عظمة القرآن وجلالة قدره ، بدليل أنَّهُ لو أنزله الله على جبل لخشع وتصدَّع ، ولا يستلزم هذا إثبات قابلية الشعور في الجبال . غير أنَّ الإجابة على هذا الاحتمال واضحة جداً ، فإنَّ هذا التفسير مبني على ما سلَّم به القائل مسبقاً من أنَّهُ لا شعور في الجبال ، ولذلك عاد ففسر الآية على ما بنى عليه . ولو تخلَّص عن هذه الفكرة - كما قلناه آنفاً - ودرس الآية بدون فكرة سابقة لوقف على أنَّ الآية مع دلالتها على عظمة القرآن تدل أيضاً على وجود شعور في الجبال ، وقابلية للخضوع والخشوع الحقيقيين لديها . وليست دلالة الآية على عظمة القرآن مانعة عن دلالتها على الأمر الثاني . ويستفاد وجود مثل هذا الشعور والوعي في الجبال من بعض الآيات الأخرى عندما تقول: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَزَلُّوا مِنْهُ الْجِبَالُ) .(2) _____ 1 . الحشر: 21 ، 2 . إبراهيم: 46 .